ذكرى

سنية صالح... شاعرة «بملايين ال

امرأة من الطباشير

خليل صويلح

كان على سنية صالح (1935- 1985) التي رحلت قبل ثلاثين عاماً بالتمام، أن تنطفئ باكراً، فكل ما كان يحيط بها بدا متصدّعاً: طفولة منكسرة، وأحلام مهشّمة، وحزن أبدي مقيم في الضلوع. كيف لفراشةٍ ضالة مثلها أن تجابه كل هذه الخسارات دفعةً واحدة؟ الطفلة التي لم تتعلّم النطق إلا متأخراً، لجأت إلى تعويض هشاشتها الداخلية بكتابة ألمها الشخصي على كرّاساتها المدرسية، قبل أن تقتحم الساحة الشعرية مثل عاصفة بقصيدتها «جسد السماء» التي فازت بجائزة «صحيفة النهار البيروتية» (1961)، القصيدة التي تفوّقت على قصيدة لمنافسها محمد الماغوط في الجائزة.

هكذا وجدت نفسها فجأة في قلب حركة الحداثة الشعرية بصحبة كوكبة من الشعراء الطليعيين مثل أدونيس، وأنسي الحاج، وشوقي أبي شقرا، وفؤاد رفقة، وصخب مجلة «شعر» وبياناتها في الحداثة والتجاوز والهتاف المضاد. لكن الشاعرة الشابة لم تنخرط عملياً في تطلعات هؤلاء الشعراء، إنما كانت تنصت إلى خزّانها من الألم الداخلي، والذهاب طوعاً إلى الظّل، في مكابدات حسيّة تنطوي على قلق وجودي عميق، وذات جريحة، وأحلام مشوّشة. من هذا الباب، على وجه التحديد، يمكننا أن ننظر إلى ديوانها الأول «الزمان الضيق» (1964)، بوصفه بياناً شعرياً لعبور النار واشتعال الجسد والعقل والمخيّلة بحمّى الكشف، كما لو أنّ الشعر هو حلم وحدس ومكاشفة غامضة لردم الآلام. وهو ما تشير إليه شقيقتها خالدة سعيد إذ تقول: «هو شعر على حدة لا يشبه أحداً، وليس منضوياً في تيار. شعر لحزن متوحّش ينبجس من الجوهر الأنثوي الخالق المطعون المسحوق عبر التاريخ. بقدر ما ينشد حكاية المغدورين، يتقدّم كصيحة للجسد الذي انتهى بين المباضع وأسرّة المشافي». مغامرة سنية صالح إذاً، تأتي من يتمها الشعري، رغم إحاطتها بعائلة شعرية باذخة، حاولت احتضانها بقوة، لكن نصّها ظلّ بمنأى عن زخارف الآخرين، ورفضت الانتساب إلى أية سلالة، ذلك أن شعرها نتاج الوجع في المقام الأول، ولم تكن قضيتها تتعلّق ببنود كتابة قصيدة النثر التي شغلت جماعة مجلة «شعر»، إنما في كيفية الخلاص من حمم براكينها الذاتية، وتنظيف المدخنة من رماد العالم وكوابيسه وآثامه، وربما لهذا السبب أُعجبت الشاعرة بقصيدة سان جون بيرس «ضيّقة هي المراكب» التي ترجمها أدونيس آنذاك، دون غيرها، نظراً للنبرة المختلفة التي خاطبت مزاجها المختلف. ولكن أية أقدار إغريقية، أتت بمحارب شرس مثل محمد الماغوط كي يكوّن منقذ الشاعرة الناحلة من الغرق؟

هناك ما يشبه الخطأ التراجيدي الفادح في سيرة سنيّة صالح، فماذا لو محونا صورة محمد الماغوط من الإطار، هل ستكمل حياتها على نحوٍ آخر؟ كانت قد برّرت ارتباطها بصاحب «غرفة بملايين الجدران» بسطوة الحبّ وحده، في الدفاع عن خيارها، لكننا نظنّ بأن دمارها الشخصي كان بسبب هذه العلاقة غير المتكافئة لجهة شفافية روحها من جهةٍ، وخشونة «البدوي الأحمر» من جهةٍ ثانية. لم تكن علاقتهما الزوجية على ما يرام، رغم دفاعها المضني عن استمرار الشراكة بينهما، ومحاولتها ترويض بداوته، وعدم اكتراثه بالقراءة، خصوصاً، في الفترة التي كان مطارداً فيها، فهي

سنية صالح مع ابنتيها شام وسلافة

طفلة في الخمسين

مرام مصري *

أنا سنية صالح المرأة التي ارتبكت عندما فاجأني الحب والتي خدعني جسدي عندما احتضنه المرض
أنا سنية صالح التي مات قلبي رعباً وبالصراخ أعلنت وحدتي انا سنية صالح ابنة صافيتا، حفيدة مائها ابنة أشجارها وسمائها، زوجة الشاعر محمد الماغوط أنجبت ابنتين وأربع كتب. كتبت الشعر حتى لا أموت، ولكن في يوم كهذا منذ ثلاثين عاماً، طُويت كما تطوى أوراق الشجر، وكما تطوي الفراشات ذكرياتها من أجل السفر الطويل. رحلت إلى قمم الجبال إلى أعماق البحار. قلت لكم إن الزمن ضيق، فلا أحد منكم دلّني على الجسور التي تؤدي إلى الله.
آسفة لرحيلي المبكر... كان بودي المكوث قليلاً لأكتب لكم قصائد أكثر، لأحيا بعيداً عن النسر الوحش، والغابة التي وقعت في كمينها، لكن المرض سرقني من الحياة، سرقني من الشعر. أرجوكم دلوني على النهر الذي يقولون إنه يعيد الصبا. لن أرتوي حتى تعود إليّ طفولتي. أريد الحياة مرتين، هكذا قالت لي سنية وأنا افتح باب ذكراها ذكرى الورد، أنها كانت تريد الحياة مرتين. يا إلهي كم كانت تحب الحياة وكم كانت في الوقت نفسه وحيدة وحزينة لدرجة المرض. كم مرة أعلنت أن زمن الحب قد انتهى، وكم ترجّت أن يطلق العالم رصاصه على جثتها. في لحظة من اللحظات شعرت بأن سنية قد تقمصتني. سكنت بي لنصف يوم للكتابة عنه. كان لا بد أن استحضرها كما السحرة، أتقمصها أو تتقمصني. لو أنها على قيد الحياة لكان عمرها 80 سنة، ولكن هي التي سيظل عمرها 50 قررت أن لا تكبر لتبقى طفلة.

* **شاعرة سورية**

يخرج واحدنا من جوف الآخر

إيمان مرسال *

لم أجد سنيّة صالح في القاهرة؛ بدأت رحلة البحث قبل سفري إلى مصر هذا الصيف، حاولت مكتبة «تنمية» ومكتبة «الكتب خان» الحصول على نسخة من أعمالها الكاملة الصادرة عن «دار المدى» من أجلي ولم تنجحا في ذلك. بعد وصولي، ذهبتُ إلى «دار الشروق» حيث قسم الشعر مختبئ تحت السلم الداخليّ للدار، ويقتصر على شعر العاميّة المصريّة الأكثر مبيعاً. الشعر أفضل حالاً في مكتبة «مدبولي»؛ ستجد محمود درويش ومحمد الماغوط وأدونيس مع الأبنودي وأحمد فؤاد نجم مرئيين في الدور الأول. قال لي البائع الخبير الذي أعرفه منذ كان شاباً في التسعينيّات: «مين هي سنيّة صالح؟»، وأخذني لأبحث بنفسي في متاهة الدور الثاني. وقع في يدي بالصدفة أكثر من كتاب كنتُ يئستُ من العثور عليه. هناك الكثير من الشعراء التموزيين والستينيين وبعض شعراء السبعينيّات، بل من الدراسات الأدبية الثقيلة التي قامت على أعمالهم فوق طاولة في منتصف إحدى الغرف. لا أثر لسنيّة صالح.

وقفتُ أنفض يدي وملابسي من الغبار بالمناديل المبللة وأنا أتخيّل أن هذه الطاولة المزدحمة بالكتب والتراب مائدة عشاء. ميّزت محمد الماغوط بجسده الضخم، الشاعر البدويّ الذي لا يحب أن يقرأ الفلسفة ويكتب للعاديين والفقراء - كما يحب أن يرى نفسه. الحائط خلفه مليء بالصور التي رسمها فنانون لوجهه. في مواجهته الشاعر الفيلسوف بذاته، أدونيس، محطّم العادي والمألوف ومخرّب اللغة القرشيّة - كما يحب أن يرى نفسه، يمسك بأناقة شوكته وسكينته في احترام واضح لآداب المائدة بينما الناقدة خالدة سعيد تجلس في وقار بجانبه. كان هناك آخرون أقلّ نجوميّة، كم أحب أن أصفهم لولا أن الغرفة ضيقة وحارة وخانقة. بجانب الباب الذي يجب أن يكون قريباً من المطبخ، كانت تجلس سنيّة صالح، لا أعرف كيف كانت تحب أن ترى نفسها، ليس لها صورة عندي لأعرضها، ما أتخيّله من كل ما قرأته عنها لا يزيد على أنها شاعرة كبيرة، ضحيّة، كانت تستحق الكثير من القراء والنقد؛ لكن الأكثر شيوعاً أنها مثلاً الزوجة المتفانية المخلصة للأوّل، وأنها أخت لخالدة سعيد، وأنها أم لبنتين ربما تنامان في الغرفة المجاورة. أستطيع من وقفتي هذه أن أرى يديها فأتذكر ما كتبه الماغوط مرة عنها «حكّت بأظافرها الجميلة الصافية قشرة التابوت وبريق المرآة». هو لم يكتب بعد ذلك عن أظافر امرأة أنهكتها الوظيفة المكتبيّة، وتنظيم حياة الزوج وإعطاء الأولوية لشهرته، بل وإعداد هذا العشاء. إنهم يتحدثون في موضوع هام، إنها تقضم أظافرها في صمت متمنية أن تمرّ الزيارة على خير، ألّا تبكي في آخر الليل معركة بين هذه الذوات الكبرى أو فشلها في أن تكون حمامة للسلام الاجتماعيّ.

عندما أتخيّل صوت سنيّة صالح الذي لم أسمعه قَطّ، أنصتُ إلى عديد خافت ومكتوم يتسرّب إليّ من وسط ضجيج يضم ثوريين بهتافاتهم الجهوريّة، محاربين متحمسين للانتصار، أو مكسورين من الهزيمة، غاضبين يصرخون ضد الدولة والديكتاتور والمجتمع واللغة المجدورة، حالمين يريدون تغيير الواقع وتفجير مؤسساته ويؤسسون في نفس اللحظة لعالم يُشبه ما يطمحون إلى تغييره. صوت سنيّة صالح لا يحتلّ أذن من يُنصت إليه لأنه يُمثل مدرسة شعريّة لها آباء وفيها أُصلاء ومقلدون، ولا لأنه محظوظ بالصمت الذي حوله، بل لأنه صوت فرديّ ومتفرّد وسط مظاهرات شعريّة، يستطيع أن ينجو بنبرته الخاصّة ويقتحمك رغم أنه مُحاط بالأنبياء والأبطال والشهداء والزعماء.

لم يصلني صوت سنيّة صالح في الوقت الذي كنتُ في أشدّ الحاجة إليه، كان يجب أن أقرأها في سنوات التكوين الأولى. عندما كنتُ أتساءل لماذا لا توجد شاعرة عربيّة حديثة أنتمي إليها. لم أسمع بها عندما كنتُ أُفكر. ولا أجرؤ على قول. إن نازك الملائكة وفدوى طوقان وسلمى الجيوسي على سبيل المثال شاعرات مهمّات؛ تعود إليْهن لفهم شيء ما عن تطور القصيدة العربيّة، عن إسهام المرأة العربيّة فيها، لمعرفة السقف المنخفض الذي لم تستطع الشاعرة العربيّة أن تزيحه أو قررت بإرادتها أن تستظلّ به. ولكن ليس بينهنّ من تذهب لتبحث عن قصائدها لأنك في حاجة إليها. إنهن شاعرات يُقرأن في المكتب، تستحضرهنّ في الفصل الدراسيّ، دائماً في الظهيرة حيث يكون الأرق بعيداً ومختبئاً في غرفتك إلى أن يحلّ الليل. لم يخبرني أحد أن هناك مَن كتبت